لماذا الهجـــرة إلى الحبـــــشة ؟ (1)

نشر بتاريخ 24 إبريل 2021

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

دائمًا عندما نتحدث عن الهجرة والبحث عن أرض جديدة لتكون بؤرة لنشر الدعوة الوليدة فإننا نتحدث عن الهجرة إلى المدينة المنورة على اعتبار أنها أهم أحداث التاريخ، ولأنه الحدث الذي بالفعل غير مجرى التاريخ، وعادة ننسى الهجرة إلى الحبشة وكأنها لم تكن، وإن ذكرت في كتب السيرة فإنها تذكر على اعتبار أنها حدث بسيط وأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يأمر المسلمين بالهجرة للحبشة إلا من أجل الحفاظ على الأرواح والهروب من بطش قريش.

وإن كانت هذه جزء من الحقيقة إلا أنها ليست كل الحقيقة، فالحقيقة تشير بوضوح أن أهداف الهجرة إلى الحبشة أو المدينة المنورة هي هي لم تتغير، فالرسول صلى اللّه عليه وسلم كان منذ اللحظات التي بدأت فيها قريش ترفض الفكر الإسلامي بعنادها غير المبني على أي دلائل أو أي منطق كان يبحث عن أرض أخرى ووطن آخر يمكن أن تكون بديلاً عن مكة لاحتضان الإسلام، وربما قبل ذلك فمنذ اللحظات الأولى من بداية نزول الوحي وعندما ذهب صلى اللّه عليه وسلم مع أم المؤمنين خديجة رضي اللّه عنها إلى ورقة

بن نوفل، قال له ورقة: "يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ (دون تردُّد): هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى اللّه عليه وسلم: "أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟" قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا".

وقبل أن نسترسل في الحديث عن الهجرة لنتعرف على قدرات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في استقراء الأحداث العالمية التي تحيط به.

يمكن أن نلاحظ أن النبي صلى اللّه عليه وسلم – كما يشير راغب السرجاني – لم يكن يعلم شيئًا عن الأنبياء بصورة مفصلة أو غير مفصلة، حيث قال: "أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟" فهو لم يقرأ عن تاريخ الأنبياء، ولم يعرف الطريق الذي ساروا فيه، ولا القصص التي مرُّوا بها، وهذا من الإعجاز الواضح. لأنه بعد ذلك سيخبر عن هذه الأمم بكثير من التفصيل، ولا يمكن أن يعرف ذلك إلا عن طريق الوحي، وفي ذلك يقول اللّه عز وجل: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) سورة هود – الآية 49، فلم يكن يعرف صلى اللّه عليه وسلم معاناة الأنبياء، ولا تكذيب أقوامهم لهم؛ ولذلك سأل ورقة: "أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟" فردَّ ورقة بثبات: "نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ".

لنعود إلى موضوع الهجرة إلى الحبشة، ويمكن أن نسأل لماذا الحبشة ؟ لماذا لم يفكر في اليمن ؟ لماذا لم يفكر في أرض الغساسة والمناذرة على الرغم من أنهم من العرب ؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال الهام من خلال تسلسل الأحداث واستقراء الأحداث الدولية التي كانت تحيط برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمنطقة العربية في ذلك الوقت، فماذا كان يحدث ؟

في بداية ذلك العصر، فلنقل مع بداية نزول الوحي أي في حوالي عام 610 ميلادية، كانت الجزيرة العربية محاطة بقوتين عظمى، وهي إمبراطورية فارس وهي التي كانت تسيطر على منطقة إيران، والعراق ونوعًا ما شمال شبه الجزيرة العربية وكانت عاصمتها بغداد، وكانت بعض القبائل العربية القاطنة في شبه الجزيرة خاضعة لها مثل المناذرة، بالإضافة إلى أن الإمبراطورية كانت تسيطر على اليمن وأجزاء من سلطنة عمان.

أما الإمبراطورية البيزنطية فكانت تسيطر على بعض الأجزاء الأخرى مثل الشام وأوروبا ومصر وليبيا وأجزاء من شمال أفريقيا والعديد من الدول وخاصة في المناطق الشمالية، وكذلك فقد كانت تتبعها بعض القبائل العربية مثل الغساسنة وغيرها.

وكانت هناك العديد من الحروب بين الإمبراطورتين بهدف بسط النفوذ وزيادة السيطرة على الأرض والاتساع الأفقي والعسكري على الأرض.

وأما الحبشة وإن كانت تتبع الديانة النصرانية إلا أنها كانت مستقلة، بمعنى أنها لم تكن تتبع من الناحية العسكرية أو السياسية لأي من القوة العظمي أو الإمبراطورتين.

وأما الجزيرة العربية فلم تكن بها قوة سياسية أو عسكرية ولا حتى تنظيم سياسي يمكنها أن تتفرد بالسلطة أو أن تفرد سلطتها على شبه الجزيرة العربية، فكانت القبائل العربية تعيش – كما يقال – على هامش التاريخ، فلم تكن تؤخذ في الحسابات التوازن السياسي أو العسكري، وربما هذا من صالحها إذ أنها لم تكن خاضعة لأي نوع من القوى آنذاك.

هذه كانت صورة للخريطة السياسية والعسكرية في ذلك الوقت، ولكن منذ هذا التاريخ بدأت الأحداث تتحرك في المنطقة، وهي تلك التي دعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يفضل الحبشة على بقية المناطق المحيطة، ومن تلك الأحداث:

في عام 611 ميلادية زحفت جيوش فارس نحو الإمبراطورية البيزنطية وبالتحديد نحو الشام، فدخلت الشام في عام 611 ميلادية، واستمرت حتى دخلت القدس عام 615 ميلادية، ولم تتوقف وإنما استمرت في الزحف حتى بلغت مصر وليبيا في عام 616 ميلادية، واستقرت في تلك المناطق حتى عام 624 ميلادية التي استعادت فيها الإمبراطورية البيزنطية كل تلك الأراضي التي تم احتلالها من قبل القوات الفارسية.

هذا يعني أن المناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية كانت ملتهبة ومضطربة وخاضعة للحروب والمشاكل السياسية والعسكرية فهي ليست آمنة للدين الجديد الذي من المفروض أن يستقر حتى ينتشر، ولا يمكن أن ينتشر هذا الدين في ظل هذه الأوضاع غير المستقرة. وبناء على ذلك فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يفكر في مناطق أكثر استقرارًا في ذلك الوقت، فأي المناطق التي يمكن أن تكون مرشحة لمثل هذه القفزة العظيمة في الدعوة ؟

مرة أخرى ولنقرأ التاريخ السابق حسب الأحداث في الجزيرة العربية.

بدأ نزول الوحي عام 610 ميلادية، وبعد ذلك بخمس سنوات أي حوالي عام 615 ميلادية وهو العام الموافق للهجرة إلى الحبشة، وخلال هذه الفترة كلها كانت القوة الفارسية في أوج قوتها وتغطرسها وصلفها، وعلى الرغم من قوتها وجبروتها – آنذاك – إلا إننا نحسب أن فارس لم تكن أبدًا إحدى الخيارات التي كانت أمام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فهي دولة مجوسية كافرة، ولم تكن ترغب أو حتى تستوعب في أي وقت من الأوقات الإسلام والدعوة الإسلامية التي تدعو للتوحيد، ونبذ الكفر بكل أنواعه.

وفي المقابل فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية أوج ضعفها فقد كانت تحاول أن تنقذ نفسها وتعيد حساباتها من أجل أن تعيد التوازن العسكري والسياسي في المنطقة، هذا يعني – أيضًا – أنها لم تكن في حالة استعداد نفسي لاستقبال الدعوة الجديدة. وفي نفس ذلك الوقت كان الدعوة

النبوية في مكة المكرمة تواجه بكل قوة والصد من قبل قريش ومعظم القبائل العربية.

لماذا لم يفكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في القبائل العربية المحيطة بمكة المكرمة، على الرغم من أنها تتحدث العربية طبيعتها وبيئتها لا تختلف عن مكة وشعبها وبيئتها ؟

لنتعرف على ذلك غداً إن شاء اللّه